على هامش النكبة :

نفوس كبيرة

الأستاذ حسني كنعان

عاد من غرفة مدير المدرسة يتأبط مجموعة للكتابة ومسطرة وقلم رصاص ، وكان بجانبه في المقعد تلميذ ظريف مداعب يحب مداعبته دائما ، وما كاد يلج الصف ويجلس مكانه على المقعد حتى فاجأه هذا الرفيق « الدعوب » يقول له :

— هنيئا لكم معشر التلاميذ اللاجئين الفلسطينيين هذه المنح والأعطيات والهدايا التي تقدم إليكم مجانا الفينة بعد الفينة ، ونحن ننظر بأعيننا دون أن يصل إلينا مثل الذي يصل إليكم . .

فمن كتب مدرسية إلى أقلام ودفاتر وماحيات وحرامات للتدفئة وسراويل وصداري » . . . ثم إلى آخر ما هنالك من حاجات تبهج الفؤاد وتقر العين وتثلج الصدر .. فلماذا لم يوزعوا علينا مثلها ؟ ألسنا تلاميذ مثلكم ، نتعلم كما تتعلمون ، وندرس كما تدرسون . . وكان هذا الحار يتكلم والبسمة لا تفارق شفتيه القرمزيتين زيادة في الدعابة ، فحسبه صديقه جادا في قوله ، وليس من عادته أن يركبه بمثل هذه الدعابة التي أثرت في نفسه تأثيرا عميقا ، فرجع بالذاكرة إلى الماضي القريب كيف كان يدفع إليه مثل هذه الهنوات المدرسية ليوزعها على فقراء الطلاب في مدرسته الأولى قبل أن يغادرها عجليا مشردا طريدا ، فطفرت من مقلتيه الدموع حارة على المصير السيء الذي انتهى إليه ، ثم نظر إلى رفيقه نظرة عتاب وملامة ، بيد أن صديقه ما قصد بقوله ذاك سوى الدعابة والمباسطة والإيناس ليدخل إلى روع صديقه أن قبول الهدايا لا ضير فيه ولا عار ، وأنها لو قدمت إليه نفسه على شرف والده وثرائه وغناه لما استنكف عن قبولها ، لكن هذا اللاجئ حسب أنه جاد لا هازل فقال له فيما قال :

— أتحسدوننا على هذه الحاجات التي لا تعدل شيئا في نظرنا ، وقد تركنا الأطيان والأموال والحلى والرياش والمتاع والعقار . . وخرجنا من بلادنا حفاة عراة لا نلوي على شيء . .

وما هذه العطايا التي تعتبرونها هدايا لنا إلا كالهبات ومسليات لنا عن مصابنا الأليم الفادح ، فوالله لا آخذها وان أقبل شيئا منها بعد الآن . .

وهنا أخذت الحدة مأخذها من الطفل اللاجئ الذي لا يتجاوز تحصيله السنة الثانية من سني المدارس الابتدائية واعتبر أن مزاح رفيقه قد مس كرامته فأهوى على المجموعة فمزقها ، وعلى القلم والمسطرة فحطمهما ، وألقاهما في سلة المهملات ومضى يقول :

أجل كيف نقبل مثل هذه المنح الرخيصة ، من يد المتصفين الظالمين الذين أذلونا وشردونا وأخرجونا من ديارنا وأقاموا مقامنا حثالة من شذاذ الآفاق ! إن هذا لن يكون . . . فبهت رفيقه ، وندم على ما بدر منه ، وأخذ يعتذر له ويطلب منه العفو والمغفرة ، فلم يفد من اعتذاره ومؤانسته شيئا . . بينما كان معلم الصف منهمكا بكتابة الوظيفة الليلية على اللوح سمع حوارهما الرقيق بلسان الطفولة البريئة ، ورأى أن هذه الحركة غير عادية في درسه ، فترك اللوح وأقبل على الطفلين يستطلع خبرهما . ولما أدرك القضية وعرف سببها أوقفهما على انفراد في زاوية من زوايا الصف ريثما ينتهي من عمله فيجري معهما التحقيق اللازم ويعاقبهما بعده لإخلالهما في درسه . .

انتهى الدرس وخرج التلاميذ إلى الفسحة ، فتقدم المعلم من التلميذين الموقوفين وبدأ بالتلميذ اللاجئ قائلا :

— أيجوز لك « ياعامر » أن تتلف المجموعة وتحطم المسطرة والقلم وترمي بهما جميعا في السلة ، ثم ترفض النعمة التي أنت أحوج الناس إليها ؟ إن عملك يا عامر لا يعمله تلميذ عاقل ، في حين أن رفيقك لم يقل ما قاله إلا مداعبا ومازحا . . ومن عادة الأصدقاء الدعابة والتظرف والإيناس..فرفع عامر إصبعه بأدب وطلب من أستاذه أن يسمح له بالكلام ، فسمح فاستهل الصبي كلامه قائلا : أنت يا سيدي عمقام والدي ومن حق الوالد على الولد أن يصغى إلى شكوى والده برؤية وهدوء . .

— فقال المعلم : أحسنت يا بني تكلم وأوجز . .

— سيدى إن من عادة رفيق هذا الدعابة والمزاح فهو يمازحنا جميعا ، وما علمت أن أحدا أزعجه مزاحه ودعابته ، لكنني هذه المرة لا أدرى كيف أثرت دعابته بى هذا التأثير الذى اعتبرته جارحا للعاطفة مثيرا للنفس فى حين أنه كان سداه الدعابة ولحمته المزاح على الغالب ...

وقد أثقل على ذلك وأنا ربيب نعمة وأليف خير ورخاء ، ما تعودت تناول العطايا من أحد أو أن أسمع شيئا مما قاله اليوم صديقى ، وما فعلت ذلك فى أدوارى إلا ترفعا وإباء وندما على أخذ هذه الهدية ، فلأن أعيش جاهلا ثم أهلك برداوجوعا وعريا أحب إلى من سماع قول كهذا وأخذ يجهش بالبكاء ..

وكان هذا الولد ابن رجل ثرى فى حيفا يملك ثلاث بيارات واثنتى عشر مفتاحا لدور ودكاكين ومخازن ، وكان إلى جانب هذا يملك ثروة تقدر قيمتها بثمانين ألف جنيه ذهبت جميعها نهبا مقسما لشذاذ الآفاق ، حتى أن والده عندما شعر بأن السلطة الحاكمة هناك حالت دون وصول النجدة من المجاهدين الأشاوس إلى حيفا وألجأت أهلها إلى الخروج منها بالقوة ، وأنها ساعدت الغزاة القادرين على مطاردتهم منها ، عاد إلى الدار ليحمل ما يقدر على حمله من الأموال ، فقتل وهو هارب بها وسلبت منه ، وقد علمت الأسرة بمصرعه وهى مؤلفة من زوجة ثكلى وولد وبنت ، أما الولد فهو عامر صاحب قصتنا هذه ، وأما البنت فهى التى حالت هذه الأسرة كما سترى ، وأخيرا أتت هذه الأسرة الروعة بأعز عزيز لديها إلى حيفا ، وقد أجلتها السلطة المنتدبة عن ديار الآباء والأجداد على الجملة ، ولم تدعها تودع فقيدها الغالى ولو بنظرة أخيرة تلقى على جثمانه الطاهر الذى عمد كالصرح مجندلا بدمه ، أجل أتت إليها تلك السلطة الشيطانية فأركبتها سيارة أقلتها إلى الميناء ومن ثم قذفوا بها فى قارب مع من قذف من سكان حيفا ووجهتهم ميناء صيدا تحت وابل من رصاص الآثمين المعتدين ...

وبعد مشقة وعذاب وصلوا إلى ميناء هذه المدينة الساحلية وانتقلوا بعد ذلك إلى بيروت ، وأقاموا حقبة من الزمن كأنها دهر ، فزين لهم أقاربهم اللجوء إلى دمشق فأموها وهم فى حالة يرثى إليها من التعب والمسغبة . . .

ولما وصلوا إليها متأخرا لم تدون أسماؤهم فى جمعية الصليب الأحمر . وكان لا دخل لديهم إلا معاش البنت التى عينت معلمة للغة الإنجليزية فى المدارس الخاصة ، وذلك بعد أن من الله عليهم بالإقامة فيها وكانت الأجرة زهيدة . .

وكان المعلم يعرف هذا كله فلم يستغرب ما رأى وما سمع منه فرق لحاله ، وأخذ يخفف عن الصبى ويسرى عنه ويربت على كتفه ويقول :

— نعم العمل عملك يابنى ، ونعمت النفس الأبية نفسك .

ثم تقدم وأخرج من منضدته مجموعة مسطرة وقلم رصاص ودفعها إلى الصبى بلطف راجيا منه قبولها هدية منه ، وزاد فى الإيناس والتلطف حتى تخيله الصبى والدا له ، فاستحيا منه وتناول الأدوات والاحمرار باد على وجهه ، والعرق يتصبب من جبينه ، ذهب التلميذ مساء إلى البيت يحمل بيده الراعشة الهدايا من يد معلمه الأب المتنوى له ...

ولكن الصبى عاد فى اليوم التالى بالأدوات إلى المدرسة ودفعها إلى أستاذه مع رسالة من والدته تشكر المعلم على حسن صنيعه وتصرفاته مع ولدها ثم تعتذر من قبول الهدية وتقول :

إنها لا تريد أن ينشأ ولدها على مد يده للهدايا مادام فى يديها وعنقها حلى وأطواق تبيعها تباعا لتنفقها على ولدها كما أبصرته بحاجة إلى المال للحصول على اللازم من أدوات المدرسة وتكاليفها ...

هذه حادثة واقعية ليست من نسج الخيال يلفقها كاتب أو شاعر للدخول إلى قلوب القراء وعقلهم واهتمامهم ولفت أنظارهم إلى أسلوب خاص بالأدب القصصى : بل هى من القصص الواقعية التى نراها ونسمع عنها تصدر كل يوم عن هذا الشعب العربى الأبى الذى نهنهته النكبة وأذلته الفاقة وهو ما انفك محافظا على إبائه وكرامته ...

فإن دلت هذه الأفاحيص على شئ فإنما تدل على كبر هذه

بمناسبة ذكرى شوقي :

المرأة فى شعر شوقى

للأستاذ عبد الموجود عبد الحافظ

شوقى قمة من القمم الشوامخ فى تاريخ الأدب فى العصر الحاضر ، فهو من شعراء الطليعة ، يضطرك بروعة بيانه وقوة عارضته واتساع أفق خياله وغزارة مادته ، وما تلمس فى آياته الشعرية من جزالة وسهولة ، أن تضعه فى مقدمة الصفوف

وهو أقوى دليل وأكبر برهان على ما وصل إليه الأدب المصرى الحديث من نهضة وتقدم ، فقد جمع شوقى فى شعره بين القديم والجديد فى أسلوب بليغ يتمشى مع جزالة الأدب العربى القديم ، والتفكير العصرى والذوق الحديث ، فتراه يعمد إلى الألفاظ اللغوية القديمة التى نسيها الناس وصاروا لا يستسيغونها ولا يقوون على سماعها لأنهم لا يعرفون معانيها فيبعثها فى شعر يحيط فيه بما فى الغرب من صور بديعة ومعان رائعة وخيالات واسعة واضحة ترضاها الحضارة الشرقية ويستسيغها الطبع الشرقى

فقد كان يعتبر أن البعث للألفاظ الدارسة وسيلة من وسائل التجديد ، وسبيلا من السبل التى تصل بين مدنية قديمة بائدة ومدنية حديثة طارقة ، يجب ألا تنقطع الصلة فيها بين السلف والخلف ، وقد كفل لهذه الألفاظ حياة جديدة بما أفاض عليها من ثوب شعرى جميل جعلها تتسع لما ظنها الناس أنها لم تتسع له من الصور والأخيلة والمعانى

* * *

وشوقى كغيره من الشعراء طرق أبواب الشعر القديم ثم زاد عليها ما استجدت به الأيام من الاجتماعيات والحوادث التى عاصرها وما أحدثت فى نفسه من آثار بالغة ، ومن هذه الحوادث البالغة الأهمية ، الضجة التى قامت حول تحرير المرأة وإعطائها نصيبا موفورا من الحرية التى حمل لواءها قاسم بك أمين

وقد شارك شوقى فى هذه الدعوة بنصيب لا بأس به ، ولكنه كان كثيره من الشعراء والكتاب يخضع لقانون البيئة الاجتماعية الذى تفرضه على الألسنة فلا تنطق إلا بحذر ، وعلى الأقلام فلا تكتب إلا بمقدار ، وعلى الجوارح فلا تتحرك إلا فى تلصص ، وعلى القلوب فلا تنبض إلا فى خوف ووجل ، لأنهم كانوا يخشون أن يكون فى شئ من هذا مايثير سخط المحافظين الذين يعتبرون — فى ذلك الوقت — السواد الأعظم الذى يسيطر على الجانب الخلق من الحياة المصرية فكان على شوقى بحكم هذه الاعتبارات ، ولأنه لا يريد أن يباعد بينه وبين محبيه أو ينفر منه القلوب التى أجلسته على عرش الإمارة ، وزانت جبينه بتاجها ، ألا يعرض لهذا الموضوع فيما ينشر على الناس إلا مترفعا متأنيا حذرا غاية الحذر

ويتخذ شعر شوقى عن المرأة صورتين . منفصلتين لا تقارب بينهما : أما الصورة الأولى فهى تقليده لمن سبقه من الشعراء ، إذ يفتتح قصائده بالنسيب الذى اعتاده الشعراء القدامى ، كما فى قوله من قصيدته (لبنان)

السحر من سود العيون لقيته ... والبابلى بلحظهن سقيته
الفاتنات وما فتن رماية ... بمسدد بين الضلوع مبيته
الناعسات الموقظات على الهوى ... المغريات به وكنت سليته
القاتلات بعابث فى جفنه ... نجل الغرار معربد أصليته (١)

(١) الأصليت : السيف

النفوس التى تحلى هذه الجسوم الصغيرة ، وإنا لنأمل يوما أن يستطير شررها فتنقلب إلى براكين جياشة تنفجر فتقض مضاجع أولئك المستعمرين الغاصبين الذين سببوا هذه النكبة ، وسيكون إنقاذ البلاد السليبة ما تقاسى الآباء على أيدى هؤلاء الأحداث الذين تفتحت أعينهم على ظلام النكبة فظلت نيران الثأر فى نفوسهم ورضعوها مع اللبن

دمشق — حسنى كنعان